مُقَدِّمَة

يعدُّ التاريخ كموضوع للبحث العلمي من الموضوعات المعرفية الكلاسيكية في الثقافية الإنسانيّة التي اشْتَغَلَ عليها العقل الإنسانيّ تحليلًا وتركيبًا، فترجع هذه الممارسات المعرفيّة إلىٰ العهد اليوناني مع الملاحم الشِّعريَّة والأُسطُوريَّة التي ألَّفَهَا عباقرة ومُؤَرِّخِو اليونان وفلاسفتُها، والتي وَصَفوا فيها تواريخهم الماضية وبطولاتهم الخالدة، وعَرَفَت هذه المعرفة التاريخيّة مع الحضارة الإسلاميّة تَطَوُّرًا علىٰ مُستَوىٰ المناهج التي تُعنَىٰ بدراسة الظاهرة التاريخيّة؛ وخاصَّة علىٰ يدِ العلامة عبد الرحمنِ بْن خَلْدُون، الذي يُعَدُّ أوَّل مَنْ أَرسَىٰ قواعد المنهج العلميّ التاريخيّ، ثُمَّ تَطَوَّرَت بعدها أشكال الكتابة التاريخيّة في عصر النهضة الأورُبِّيَّة مع الفيلسوف الإيطَاليّ جون باتيستا فيكو، إلىٰ أن انفصل الفكر التاريخي تمامًا عن الفلسفة في المنتصف الثاني من القرن الثامن عشر، وأصبح علمًا له موضوعاته ومناهجه وأدواته البحثية، ينتمي إلىٰ دائرة العلوم الإنسانيّة.

وتحوَّلَت الكتابة التاريخيَّة إلىٰ صناعة وحِرفَة ومعرفة مُنَظَّمة بالظواهر والأحداث التاريخية، ولديها مُشتَغِلوها يُطلَقُ عليهم اسم المؤرِّخين، وعلىٰ الرَّغم من الجَدَل الذي أثاره أصحابُ الاتِّجاه الوَضعِيّ الطبيعي حولَ عِلْمِيَّة علم التاريخ، وعن إشكاليَّة تطبيق المنهج العلميّ علىٰ ظواهر الزَّمن التاريخيّ الماضي، إلّا أنَّه تمَّ التَّوكيد علىٰ أنَّ **علم التاريخ يُعتبر علمًا إنسانيًّا له مناهجُه الخاصَّة التي تختلف بالضَّرورة عن مَنَاهِج العُلوم الطبيعية**، حيثُ يسعىٰ هذا العلم إلىٰ فهم وتفسير الوقائع الماضية مستندًا إلىٰ المنهج العلميّ التاريخيّ، الَّذي لديه خطواته المنهجيَّة والبحثيَّة، والقائمة علىٰ التمحيص والتدقيق في الوثائق والسِّجِلَّات التاريخيّة، للوُصُول إلىٰ فهمٍ شاملٍ للحَدَثِ التاريخي، واستنباطِ القوانين التي تحكُمُ سَيرَ التاريخ الإنسانيّ.

وفي السعي الحثيث لعلم التاريخ لاستقلاله عن الفلسفة من جهة موضوعه

ومناهجه، فإنَّنَا نجد أنَّ التاريخ كظاهرة إنسانيَّة يُعَدُّ مَوضُوع بحثٍ أيضًا في الفلسفة، لأنَّ التاريخ كمُعطًىٰ أُنطُولُوجِيّ مِنْ أكبرِ الموضوعات المحايِثة للذات الإنسانيّة، فإذا؛ كان علماء التاريخ يعتبرون أنَّ الإنسان هُو صانِعُ الحدث التاريخي، فإنَّ الفلاسفة محور اشتغالهم الرئيس هو الإنسان ككائنٍ صانعٍ للتاريخ في هذا الوجود؛ لذلك فإن الفلسفة تهتَمُّ بالتاريخ لكن مِنْ مَنظورٍ مُغَايِرٍ لموضوعات علم التاريخ، وإنْ كان التاريخ يُزوِّدُها بالمادَّة الخام التي تؤسس عليها فلسفتها للتاريخ الإنسانيّ.

ومن المباحث الفلسفيّة الفرعيّة نظرية المعرفة، التي تُعنَىٰ بمسائل وإشكاليَّاتِ إمكان المعرفة في هذا الوجود، وطبيعة مصادِرِها وأدواتها، ومن هنا، يتمُّ الوَصلُ المعرفيّ والفِكريّ بين الفلسفة والتاريخ عندما يتحولُ التاريخ إلىٰ موضوعٍ للبحث والدراسة العلمية، فتطرق الفلسفة باب علم التاريخ من زاوية أسئلة نظرية المعرفة مِنْ قبيل:

هل المعرفة التاريخيّة مُمكِنَة؟

ما هي الأدوات والمناهج التي توصِلُنَا إلىٰ الحقيقة التاريخية؟ فبناءً علىٰ هذه التساؤلات تتحدد الدائرة الأولىٰ التي تَشتَغِلُ عليها فلسفة التاريخ كحقلٍ فرعيٍّ مِنْ الفلسفة العامة، فتُمارِسُ نقدها الفلسفيّ علىٰ مناهج الكتابة التاريخيّة، وتبين حدودها ومجالاتها وإشكالاتها المختلفة، **فتُسهِم فلسفة التاريخ بطريقة ما في تحديث المناهج والأدوات المعرفيَّة التي يستخدمُهَا المؤرِّخُون في دراسة الظَّواهر والوقائع التاريخيَّة، وتوقِفُ فلسفة التاريخ المؤرِّخين علىٰ جملة الأخطاء والأغلاط التي يرتكبونها في تفسير وتأويل وقائع الماضي، كالكشف عن طبيعة الإبستيمي الذي يؤلف في ظلاله المؤرِّخون كُتُبَهم التاريخيَّة، والكشف عن حدود الذاتية والموضوعية في الكتابات التاريخية وتأثيرها علىٰ بناء الوقائع الماضية وتفسيرها، وغيرها مِنْ القضايا والموضوعات المعرفية.**

ومِنْ مَنظورٍ فلسفيٍّ مغايرٍ للمُمَارَسَة النقدية التي تختصُّ بها الفلسفة، يهتمُّ كذلك فلاسفة التاريخ بتأويل الماضي وأحداثه التاريخية، ويُحَوِّلون التاريخ إلىٰ موضوعٍ للاشْتِغَال الفلسّفِيّ في سَعيِهِمُ الحثيث إلىٰ بَلوَرَة نماذجَ فلسفيَّة تفسيريَّة للتاريخ الإنسانيّ، فَفَلاسفة التاريخ لا يَسعَون إلىٰ دراسة الوَقَائع والأحداث التفصيليَّة كما

يفعل المؤرخون، إنَّمَا يَسعَون إلىٰ تقديم فهم شُمُولِيّ للتاريخ الإنسانيّ ومُحاوَلة تأويله تأويلًا عقلانيًّا، وتأويلًا يَضَع الذَّاتَ الإنسانيّة في مُواجهة مصيرها المحتوم في هذا الوُجُود، والكشف عن المحرِّك الرئيس للتاريخ، والسعي إلىٰ صياغة قوانينَ تُفَسِّرُ مسارَ التاريخ الإنسانيّ.

لذلك، ظهرت العديدُ مِن النَّظَريَّات والنماذج الفلسفيَّة التي سَعَت إلىٰ تفسير التاريخ الإنسانيّ، يأتي في مُقدِّمَتِها نظريَّة العِنَايَة الإلهيَّة التي ترىٰ أنَّ التَّاريخَ الإنسانيّ ما هو إلَّا تَجَلٍّ لإرادة الله في هذا الوُجُود، ثُمَّ تَلَتْهَا نَظَرِيَّاتٌ عَديدة في الفِكْرِ الغربيّ المعاصر، كنظريَّة التقدُّم التي آمن فلاسفتُها بأنَّ التاريخ يسيرُ وِفقَ خطٍّ مستقيم، ويسعىٰ التاريخ في كلِّ مرَّة لتحقيق قِيَمٍ مُعيَّنة، كالحرية، الدولة، العدالة، . . . إلخ ثُمَّ أعقَبَتْها نظريَّة التَّعاقُب الدَّورِيّ للحضارات، وغيرها من النماذج التفسيريّة، ويرجع هذا التعدُّد في النماذج إلىٰ جملة السياقات التاريخيَّة التي تَتَوَلَّد عنها، ممَّا يعني تاريخيَّة فلسفة التاريخ؛ أي إنَّها وليدة اللَّحظَة التاريخيَّة التي تُنتِجُها وتَتَولَّد عنها، فيعود في الغالب الأعمِّ فلاسفة التاريخ إلىٰ الماضي ليُؤَوِّلُونه طِبقًا لرؤيتهم إلىٰ المستقبل الحضاري لمجتمعاتهم.

وتأسيسًا علىٰ هذه المقدِّمة النظريَّة في التاريخ وفلسفة التاريخ؛ جاءت فصول كتاب: «محاضرات في فلسفة التاريخ» موزَّعة كالتالي:

اعتَبَرْنَا الفصل الأوَّل بِمَثَابة فصلٍ تمهيدِيّ لفلْسَفَة التاريخ، حدَّدنَا فيه الدِّلَالات اللُّغوِيَّة لمفردة التاريخ، ثُمَّ عرَّجْنَا علىٰ مفهوم علم التاريخ كمبحثٍ معرفيٍّ إنسانيّ، تَطَوَّرَ عبرَ العديد من المراحل التاريخيَّة، إلىٰ أنْ أصبحَ التاريخُ تَخَصُّصًا معرفيًّا يُدرسُ في الجامعات والمعاهد في زمَنِنَا المعاصر، ثُمَّ تَطَرَّقْنَا إلىٰ عِلمِيَّة علم التاريخ، وما تُثيره مسألة العِلميَّة مِنْ جَدَلٍ بين أصحاب الاتِّجاه الوَضْعَانِيّ والاتِّجاه المثاليّ الثقافيّ، حول إمكانيَّة تطبيق المنهج العلميّ الطبيعيّ عند دراسة الحوادث الماضية، وإشكاليَّة التعميم والتَّنَبُّؤ العلميّ والمبدأ التجريبيّ في الدراسات التاريخية، وغيرها، وتوصَّلْنَا إلىٰ أنَّ عِلم التاريخ علمٌ له مناهجه الخاصَّة به، ثُمَّ حاولْنَا أنْ نحدِّدَ الصِّلة بين الفلسفة والتاريخ، مِنْ خلال الموضوعات التي يشتغل عليها كلُّ مبحَثٍ علىٰ حدة، وأكَّدْنَا في الأخير أنَّ فلسفة التاريخ تسعىٰ إلىٰ الدراسة النقديَّة لمناهج الكتابة

التاريخيَّة، وكذلك صياغة نماذج ونظريَّات فلسفيَّة يُفسَّرُ عنْ طريقها التاريخ الإنسانيّ.

أمَّا في الفصل الثاني، فتَنَاوَلْنَا فلسفة التاريخ في القرون الوسطىٰ، مُستهِلِّين الحديث عنْ نظريَّة العناية الإلهية التي صاغَهَا القدِّيس أوغسطين، من خلال تناوله للتاريخ من وجهة نظر اللاهوت المسيحيّ، وتقسيمه التاريخ العالميّ إلىٰ مدينتين: مدينة الأرض ومدينة السماء، ثم عرَّجْنَا بعدها علىٰ الإسهام الخَلْدُونيّ في التأسيس الإبستمولوجي لعلم التاريخ، وحدَّدنَا مفهوم فلسفة التاريخ عند ابن خَلْدُون التي تبحث في العلل الباطنية التي تحكم التاريخ، وفي الأخير شرحنا النموذج الفلسفي التفسيري لابن خَلْدُون من خلال تطَرُّقِه للأطوار التي تمرُّ بها الدولة، حيث تَوَصَّل ابن خَلْدُون إلىٰ أنَّ العصبيَّة والترف عاملا نشأة الدول، وفي المقابل، اعتبرهما عاملي انحطاطها وأُفُولِهَا.

والفصل الثالث عَنْوَنَّاه بـ: التفسير العقلانيّ للتاريخ، فبعد هَيمَنَة التفسير اللَّاهوتيّ المسيحيّ علىٰ الكتابة التاريخيَّة الأوروبيَّة في القرون الوسطىٰ، بُذِلَت محاولاتٌ في بدايات النهضة الأوروبيَّة لتخليصِه مِنْ هذه الرؤية اللَّاهوتيّة، ويُعَدُّ الإيطاليُّ جون باتيستا فيكو أوَّل مَنْ دعا إلىٰ تأسيس علم التاريخ الوَضعِيّ، الذي يكون موضُوعُه الإنسان صانع التاريخ، ويسعىٰ هذا العلم إلىٰ تقديم تفسير عقلاني لمجرىٰ التاريخ بدلًا مِنْ نظريَّة العِناية الإلهيَّة، ثُمَّ تَنَاوَلْنَا فلسفة التاريخ عند مونتسكيو مِنْ خلال مُحاولته الرائدة في إعادة تأويل التاريخ الرُّومانيّ تأويلًا عقلانيًّا، مُنَقِّبًا فيه عن الأسباب الموضوعيّة التي أدَّتْ إلىٰ عَظَمة روما، وفي الوقت نفسه العوامل التي أدَّتْ إلىٰ انحطاطها، فتَوَصَّل في فلسفته التاريخية إلىٰ أنَّ التوسُّع الجغرافي وفُقدان روح المواطنة أدَّتْ إلىٰ انحلال روما، وليس فساد عقيدتها الدِّينيَّة والأخلاقيَّة كما تدَّعِي فلسفة أوغسطين.

وفي الفصل الثالث، ومع ظُهور فلسفة التنوير وأطرُوحَاتِها عنْ التَّقَدُّم الإنسانيّ، تولَّدَتْ فلسفة التاريخ علىٰ يد هيغل الذي أعطاها أبعادَها الحقيقية، حيث انتقد مناهج الكتابة التاريخيَّة في كتابه «**محاضرات في فلسفة التاريخ**»؛ وقَسَّمَ كتابَة التاريخ إلىٰ ثلاثة أنواع: تاريخٌ نظريّ وأصلِيّ وفلسفيّ، وبَيَّن هيغل أنَّ الفكرة الوحيدة التي تجلِبُهَا الفلسفة مَعَهَا إلىٰ التاريخ هي أنَّ العقل يحكُمُ التاريخ، وأنَّ مَسَار التاريخ هو عبارة عن

كفاحِ الرُّوح ليَتَجَسَّد في صورة نهائيَّة علىٰ شكل دَولة، لينتهي التاريخ بعد أنْ تَسُودَ الحريَّة بشكلٍ مُطلَقٍ، ثُم تَناولْنَا فيلسوفًا آخر يتقاسَمُ معه نظريَّة التقدُّم عبرَ التاريخ الإنسانيّ: كارل ماركس؛ ويختلف معه في أنَّ الفكر يصنع التاريخ، واعتبر أنَّ التاريخ تَصنَعُهُ قُوَىٰ الإنتاج المادِّيّ، ويذهب ماركس في تَنَاوُلِه للتاريخ إلىٰ أنَّ الوُجُود الاجتماعيّ هو الذي يُحدِّدُ الوعيَ الإنسانيّ، وصاغَ ماركس فلسفتَه للتاريخ التي عُرِفَتْ بالمادِّيَّة التاريخيَّة، مُتَّخِذًا مِنْ المنهج الجدليّ أداة لتفسير مراحل تطوُّر التاريخ، التي تبدأ مع المرحلة المشَاعِيَّة وينتهي التاريخ مع الطور الشُّيُوعِيّ، كآخر حلقة مِنْ حلقات تطوُّر التاريخ الإنسانيّ.

ثم عَرَّجْنا في الفصل الرابع علىٰ نظرية التَّعَاقُب الدَّورِيَّ للحضارات في تفسير التاريخ العالميّ، **أوَّلًا**: عند أسوالد شبنغلر الذي يرىٰ أنَّ وِحدة التحليل التاريخيّ تتمثَّل في الحضارة، وأنَّ التقسيم الذي يقدِّمُهُ المؤرِّخون الغربيُّون عن التاريخ إلىٰ قديم ووَسِيطٍ ومعاصر يحمل تمركُزًا حادًّا حول الذات الغربية، فيرىٰ المؤرخ الغربي أنَّ الغرب، أورُبَّا تحديدًا مركزُ العالم والباقي هامشٌ لا قيمة تاريخيَّة له، ويرىٰ شبنغلر أنَّ الحضارة الغربية تعيش مرحلة الانحطاط والأُفُولِ الحضاريّ، وأنَّ مصيرها الزَّوال كما أَفَلَتْ بقيَّة الحضارات التي ظَهَرَتْ عبر التاريخ الإنسانيّ، **وثانيًا**: تناولْنَا نظريَّة التحدِّي والاستجابة عند أرنولد توينبي كنظرية في فلسفة التاريخ، ووضَّحْنَا كيف تُحَدِّدُ الأقليَّة المبدِعَة طبيعة الاستجابات لطبيعة التحدِّيَات التي تواجِهُهَا المجتمعاتُ الحضارِيَّة، فقد تكون تلك استجابات ناجحة أو فاشلة، فيتحدَّدُ علىٰ أساسها مسارُها التاريخي، وعن إمكانية أنْ يَتَجَاوَزَ الغربُ مرحلة الانحطاط التاريخي، إذا تَجَنَّبَ العوامل التي أَدَّتْ إلىٰ سُقُوط وانحطاط الحضارات السابقة.

وافتَتَحْنَا الفصلَ الخامسَ بتَنَاوُلِنَا فكرة نهاية التاريخ عند فرانسيس فوكوياما، الذي يرىٰ أنَّ التاريخ الإنسانيّ لَمْ يَعُدْ يُطلِعُنا علىٰ ما هو جديد في المستقبل، بسبب اكتشاف النَّمُوذج الليبرالي الديمقراطي، الذي سعت إليه الإنسانيّة عبر مسارها التاريخي، ويرىٰ فوكوياما أنَّ التاريخ الإنسانيّ يحرِّكُه الصراع مِنْ أجل نَيلِ التقدير والاعتراف، وليس كما يَتَوهَّم البعض الصراع مِنْ أجل تحقيق المكاسب المادِّية والمصالح الذاتية، ثُمَّ تَطَرَّقْنَا إلىٰ صدام الحضارات لدىٰ هنتغتون الذي جاء ردًّا علىٰ

نهاية التاريخ عند فوكوياما، فصحيحٌ بالنِّسبة لهنتغتون أنَّ الصِّراع انتهىٰ بين الأمم بالمفهوم الكلاسيكي، أي الحروب والمواجهات العسكرية، لكنَّ الصراع القادم بين الأمم سيكون بين مركز الحضارة الغربيَّة ومراكز الحضارات القديمة كالإسلاميَّة والصينية وفق خطوطِ التقسيم الثقافيّ.

وفي الختام: أَردنَا في الفصل السادس أنْ نُعَرِّجَ علىٰ بعض الإسهامات العربِيَّة في فلسفة التاريخ، مِنْ خلال تحديد معالم فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي، الذي اعتبر أنَّ الحضارة هي وِحدة التحليل التاريخي، ومخالفًا بذلك فلاسفة الحضارة الذين سبقوه في فكرة أنَّ الدين هو عاملٌ رئيس لنَشأة الدُّوَل والحضارات، وعلىٰ أساسه قسَّم الحضارة إلىٰ ثلاثة أطوارٍ: طَورُ الرُّوح والعقل ثُمَّ طَوْر الغريزة، ثُمَّ تناوَلْنَا إسهام عبد الله العروي باعتباره مُؤَرِّخًا وفيلسوف التاريخ، مِنْ خلال إبداعه للتاريخ بالمفهوم بديلًا عَنْ فلسفة التاريخ، وكذلك انتقاده للكتابة التاريخيَّة الاستعماريَّة، وتحديدُه مفهوم التاريخيَّة والتاريخانِيَّة، وفي الأخير شَرَحْنَا مفهوم التأخُّر التاريخي وكيف يتمثَّله العرب، مِنْ خلال الفقيه الدينيّ والاستمرار التاريخي، والسياسي الليبرالي والانقطاعيَّة التاريخية، والداعيَة التقَنِيّ واللاتاريخية، بما يقودنا إلىٰ فهم طبيعة التخلف المجتمعي العربي.